مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (7) العدد (1) 2023
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (7) No. (1) 2023

أسئلة النقد الفنية حول قصة النبي موسى والرجل الصالح في القرآن الكريم (مقاربة بنيوية)

د. غدير أحمد يوسف*

(تاريخ الإيداع 7/28 /2022. قُبِل للنشر في 1/10 /2023)

□ ملخّص □

كثرت التنظيرات حول لغة القرآن القصصية، كما كثرت الدراسات والمقاربات التي تناولتها، سواء أكانت في مجمل القصة القرآنية، الأمر الذي لا يدع – برأيي – مجالاً واسعاً لكشف كنه علائقها، وسبر أغوار سردها، واختبار العلاقات بين مكونات نسيجها السردي، وإفساح المجال، من ثَمّ، لإبراز مكنونات جمالياتها، تلك التي إن ظهرت أبهرت المتأمل بسحر سياقها الثقافي والمعرفي، أم كانت في اختيارها قصة واحدة ودراستها نموذجاً يمثل ما يموج به القصص القرآني من جماليات في سياقاته المختلفة.

سيحاول البحث مقاربة قصةٍ من القرآن الكريم، وهي قصة النبي موسى والرجل الصالح، مستخدماً أدوات السرد الحديثة، سعياً وراء الكشف عن مكنونات جمالياتها السردية، فساءل بنيوياً تقنيات اللغة القصصية، في السرد والوصف والحوار، ودرس بنيات الشخصيات والزمان والمكان المشكلة لسردها.

الكلمات المفتاحية: أسئلة النقد الفنية، قصة النبي موسى والرجل الصالح، مقاربة بنيوية

*. عضو هيئة تدريسية (مدرّس) في جامعة طرطوس، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، اختصاص: النقد العربي الحديث.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (7) العدد (1) 2023
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (7) No. (1) 2023

Technical criticism questions about the story of the Prophet Moses and the righteous man in the Holy Qur'an (structural approach)

*Ghadeer Yousef

(Received 28/7 /2022. Accepted 10/1/2023)

□ ABSTRACT□

Theorizing about the narrative language of the Qur'an abounded, as did the studies and approaches that it dealt with, whether it was in the entire Qur'anic story, which in my opinion does not leave much room for revealing the nature of its relationships, probing the depths of its narration, testing the relationships between the components of its narrative fabric, and making room, then , to highlight the potentials of its aesthetics, those that, if they appeared, dazzled the meditator with the magic of their cultural and cognitive context, or were they choosing one story and studying it as a model representing the aesthetics of the Qur'anic stories in its different contexts.

The research will attempt to approach a story from the Noble Qur'an, which is the story of the Prophet Moses and the righteous man, using modern narration tools, in an effort to reveal the hidden aesthetics of its narrative. He structurally questioned the techniques of narrative language, in narration, description and dialogue, and studied the structures of characters, time and place that are problematic to narrate them.

Keywords: technical criticism questions, the story of the Prophet Moses and the righteous man, a structural approach

*Assistant Professor_ Department of Arabic Language Faculty of Arts and Humanities_ Tartous Universit_ Tartous_

المقدمة:

سجّل القرآن الكريم حضوراً دلالياً واسعاً، بوصفه تلك المرجعية الفنية الخالدة التي ما انفك الأدباء والنقاد يقاربونها بمستويات مختلفة من الوعي الأدبي والفلسفي والديني. وعلى مستوى القصة القرآنية، التي شغلت ما يقارب ربع القرآن، فقد سعى النقاد إلى دراستها في إطارها الديني والأخلاقي، لكنّ تلك الدراسات، على كثرتها، اتسمت بعدم تناولها العناصر السردية التي كونت النص في معظمها، وباستخدام أدوات إجرائية بسيطة لم تخرج على مدار المرجعية التراثية، تلك التي اتكأت على مستحضرات البلاغة العربية في البيان والبديع.

ولعل معظم مقاربات الخطاب القصصي القرآني درجت على عدّه إخباراً عن أحداثٍ ماضويةٍ تهدف إلى نشر العبر، وغاب النسيج الجمالي الذي يؤسس له أسلوب السرد والتقنيات الكامنة خلف السياق الجمالي المعرفي في هذا الخطاب.

وانطلاقاً من ذلك، فقد بُني البحث أولاً: على الابتعاد عن التنظير في التعريف بمعنى القصة لغةً واصطلاحاً، وفي التعريف الواسع بمصطلحات السرد، وفي التوسع في عرض أحداث القصة، لقصر المجال عن تأدية الغرض الرئيس للبحث، وثانياً: بُني على انتقاء قصة من القرآن الكريم واستثمارها نموذجاً ممثلاً للقصص القرآني، وكانت قصة النبي موسى مع العبد الصالح (الخضر) القصة المختارة في هذا البحث، لوجود العناصر السردية التي تتطلّب بحثاً واستقصاءً يكشف عن إبداع النص القصصي القرآني.

سيبدأ البحث بمساءلة اللغة القصصية، سردها ووصفها وحوارها. فكيف انتقلت القصة من وقائع تاريخية إلى وقائع كتابية؟ وكيف انتظم سردها في عملية الحكي؟، ثمّ، ما علاقة السرد بالوصف؟ وما وظيفة الوصف في هذه القصة؟، ومن حيث الحوار، سيستفسر البحث عن الدور الذي أداه الحوار في إطار سردها. سينتقل البحث بعدها إلى الشخصيات، فيحاور شخصياتها المسطحة منها والمستديرة، والثابتة والمتطورة النامية مع الحدث، ثم يدلف إلى ما ذُكر من أسماء الشخصيات، وما غاب ذكره. وسيرصد البحث تقنيات الزمن السردي في الاسترجاع والاستباق والحذف والخلاصة، وسينهي العناصر بالمكان الروائي، وكيف تخترقه الشخصيات فتخرج به عن مجرد كونه واقعاً تجريدياً. وسيختم البحث بنتائج توصل إليها، ويرجو أن ترسم جديداً، وتؤسس لجديد.

أهمية البحث:

تأتي أهمية البحث من اشتغاله بتقنياتٍ سرديةٍ كان قد أغفلها . إلى حدٍّ ما . مَن تنطع لدراسة قصص القرآن الكريم، ولاسيما قصة النبي موسى والرجل الصالح، فحاول البحث استكشاف علاقات عناصرها التي شكلت نسيجها السردي.

هدف البحث:

هدَفَ البحثُ إلى إبراز العناصر المشكلة للنسيج السردي في قصة النبي موسى والرجل الصالح، كما وردت في القرآن الكريم، ومقاربة نصها بنيوياً.

منهج البحث:

سيحاول البحث مقاربة قصة النبي موسى والرجل الصالح كما وردت في القرآن الكريم بنيوياً، مستنطقاً عناصرها المكونة لها، مسائلاً علاماتها اللغوية عن جماليات تشكيلها السردي.

الدراسات السابقة:

لم تخرج الدراسات حول القصص القرآني على مدار البحث المضموني، وهي، في مقاربتها تلك القصص، دأبت على عدّها أحداثاً تحكي عبراً من التاريخ، ولا سيما قصة النبي موسى والرجل الصالح، ولعل الدراسة الأقرب لهذا البحث هي دراسة أرزقي عقيلة والمعنونة بـ "جمالية الإعجاز في البناء السردي في القصص القرآني (قصة موسى عليه السلام والرجل الصالح أنموذجاً) . دراسة سيميائية سردية"، ونُشرت في مجلة العلوم الإنسانية في الجزائر، مج 3، الإصدار 1، الصفحة 41، عام 2019. وتناول فيها ما سمّاه "الثالوث القصصي: الزمن، والصيغة، والرؤية السردية"، وأما هذا البحث فيرصد العناصر البنائية التي تحكم السرد القصصي في قصة النبي موسى والرجل الصالح في القرآن الكريم، والتي بها ينتظم النسق في بنية هذا النص، من خلال إبراز بنى اللغة السردية والشخصيات والزمان والمكان.

أسئلة النقد الفنية حول القصة القرآنية

1. تشكّل اللغة القصصية:

أ. السرد (Narration):

اتبعت حركة السرد في قصة النبي موسى والرجل الصالح خطاً منتظماً تتابعياً، فكل فعل سرديّ يولّد في حركته فعل السرد التالي في متتالية منتظمة، ذلك التتابع الزمني الذي يبدأ من كلمة "إذ" التي هي ظرف للزمن الماضي، وكأننا أمام راوٍ سيخبرنا أن هناك قصة حدثت في الزمن الماضي، ومن هذه الكلمة تبدأ الأفعال بالتوالي، يستهلها الفعل "قال"، ثم "بلغا" فـ "نسيا" فـ "اتخذ" فـ "جاوزا" ... وهكذا يقترن كل فعل بحدث يتبع الحدث السابق، وما يؤكد تلك التتابعية أيضاً أداة الربط "الفاء" التي تفيد الترتيب والتعقيب المباشر من دون فاصل زمني، والتي كثر اقترانها بالأفعال في هذه الآيات مثل: "فلما بلغا"، "فاتخذ"، "فلما جاوزا"، فارتدّا"، "فوجدا"، "فانطلقا"، "فقتله"...

وفي الآيات أيضاً تكرار لوحدات سردية صغرى تكاد تولج كلُّ واحدة منها في حكاية سردية جديدة، وهذا التكرار ناشئ من العلاقة الخلاقة بين الحكاية والسرد، فالحدث قادر على الوقوع في السرد كما أنه قادر على أن يتكرر، والحدث لا يبقى ذاته في كل مرة، وكذلك الملفوظ السردي يتكرر أيضاً، ولكن هذا التكرار لا يعني التطابق، فالتكرار شيء ذهني لا خطّيّ. ومن الملاحظ تكرار افتتاحية الحدث في السرد في حكايات اتباع موسى (ع) للرجل الصالح في قوله تعالى: "فانطلقا حتى إذا..." فكانت هذه المقولة افتتاحاً لثلاث قصص متتالية: حكاية خرق السفينة، وحكاية قتل الطفل، وحكاية بناء الجدار للغلامين اليتيمين. وفي الحكايتين الأولى والثانية تتكرر النهايات في قوله تعالى: "ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا" . مع تدخّل "لك" في الحكاية الثانية . وإنما أراد من خلالها توكيد ما أتى به الرجل الصالح قبل الانطلاق في الحكايات الثلاث، عندما أكد لموسى: "إنك لن تستطيع معي صبرا".

لعل الباحث يتلمّس ابتعاد القصة عن الترتيب السردي الذي يطمح إليه السارد، وإبقاء الأحداث بسيرها الطبيعي الذي بني عليه السرد، فتجنّب تقاطع الأحداث وتداخلها، كما سعى إلى رسم الواقع الحكائي بأفعال اقترنت بالتسلسل المتتابع غير المتداخل.

ب. الوصف (Description):

قد يعيد السرد للقارئ زمن الأحداث من خلال زمن الخطاب، لكن الوصف يصل بالخطاب إلى حدود توقف الزمن، بل إنه ينقل لنا صورة الأشياء دفعة واحدة مما يجعل السرد بطيئاً. ويتداخل السرد والوصف كثيراً في القصة. أما في قصة موسى والرجل الصالح فقد كان الوصف قليلاً، ومن النوع الذي سمّاه عبد اللطيف محفوظ "بسيطاً"، وهو "الذي يعطى من خلال جملة وصفية مهيمنة قصيرة، لا تحتوي إلا على بعض التراكيب الوصفية الصغرى، ويتحقق ذلك في الغالب حين يتم الاستغناء عن الأجزاء والصفات، كالاقتصار أثناء وصف الشخصيات على تراكيب وصفية موجزة (رجل وسيم)، (كان رجلاً نحيفاً...)، أو كأن يكون الموصوف متراصاً، غير مجزّأ"[1]. فالجمل ذات الوقفة الوصفية يمكن تعدادها وهي: "فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنّا علما"، جداراً يريد أن ينقضّ"، "مساكين يعملون في البحر"، "ملكٌ يأخذ كل سفينة غصبا"، "غلامٌ أبواه مؤمنَين"، "غلامين يتيمين". وكلها أوصافُ سريعةٌ لم تطل عندها الوقفة الزمنية.

ويجعل الناقد حميد لحمداني للوصف وظيفتين:[2]

الأولى جمالية: وفي هذه الحال يقوم الوصف بعمل تزييني وهو يشكّل استراحةً في وسط الأحداث السردية، ويكون وصفاً خالصاً لا ضرورة له بالنسبة إلى دلالة الحكي.

الثانية توضيحية تفسيرية: أي أن تكون للوصف وظيفة رمزية دالة على معنى معين في إطار سياق الحكي.

والوظيفة الواضحة في قصة النبي موسى والرجل الصالح هي الوظيفة الثانية: التوضيحية التفسيرية. فالآيات لم تهدف إلى التزيين والتجميل بقدر ما قصدت العبرة والعظة، وهذا الوصف قد يقدّم دلالات كثيرة سوى الجمالية التي تبتكرها الكلمة في ترتيب الحكي.

ويلجأ القاص غالباً في تشكيل لغة القص إلى المزاوجة بين السرد والوصف. فالقصة كما تتكون من أفعال وأقوال تميّز سردها تتكوّن أيضاً من إطار زمانيّ ومكانيّ وشخصيات تتأمل وتفكر، ولهذا تتطلب أسلوباً حاضناً يستطيع استثمار الطاقات في القصة، وهذه التقنيّة هي الوصف. لكنّ القصة التي بين يدينا لم تكن بحاجة إلى كل ذلك، ليس لأنها لا تمتلك شخصيات وزماناً ومكاناً، أو لأنها لا تحتاج إلى إطارٍ لذلك، بل لأنها توخّت الابتعاد عن الوصف التفصيلي الذي يمنح السرد وقفة قد لا يحتاجها في هذا المقام، ولذلك كانت العلاقة سلميّة بين السرد والوصف، بتعبير عبد اللطيف محفوظ، وسمّى تلك العلاقة: "السرد الوصفيّ[3]"، وفيها يبدو الوصف شبه منعدمٍ، ولا يحس القارئ بوجوده أثناء القراءة السريعة أو العادية، وتتمثّل تلك العلاقة بوجود أفعال حركية ووصفية في آن واحد، وبما أن كل حدث يمكن التعبير عنه بوساطة عدد من الأفعال التي تناسبه فإن اختيار فعل بعينه هو انتقاء لحالة وصفية تحدد نوعية الحدث أو نوعية الوعي أو التفاعل معه، وهذا يعني أنّ مع كل فعل يوجد عملية وصفية محايثة للعملية السردية وخاضعة لها. ولقد جاءت الأوصاف في القصة في غالبها جملاً فعليةً مانحة ولاءها

---

[1] . محفوظ، عبد اللطيف: "وظيفة الوصف في الرواية". الدار العربية للعلوم ناشرون / منشورات الاختلاف. الجزائر، ط1– 2009، ص49.

[2] . ينظر: لحمداني، حميد: "بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي". المركز الثقافي العربي. بيروت/الدار البيضاء، 1993- ص79.

[3] . ينظر: محفوظ، عبد اللطيف: "وظيفة الوصف في الرواية". ص43 وما يليها.

للسرد القصصي، فحين جاء مثلاً "جداراً يريد أن ينقضّ" كانت صفة الجدار فعلاً سردياً أمهل السرد ولم يوقفه، والمساكين الذين يعملون في البحر، والملك الذي يأخذ كلّ سفينة غصباً. في هذا كله لا يشعر القارئ أنه يقف ليتأمل ويتفكر، لكنّه يقرأ ويتابع.

ت. الحوار (Dialogue):

يبنى الحوار في اللغة على كلام متحاورَين أو أكثر، وهذا يعني فيما يعنيه أن حديث الشخصيات مع نفسها لا يمكن أن يكون حواراً، لأن الحوار يفترض وجود الآخر الذي يتوجه إليه الخطاب الحواري. وقد أدى الحوار في القصة التي يتناولها البحث دوراً مهماً، على صعيد معرفة الشخصيات ودواخلها، وعلى صعيد وجهة النظر المقدّمة من كل شخصية. وقد نال حيزاً ليس بقليل من القصة، كان بداية مع الكلمة الثانية التي افتتحت القصة بحوار للنبي موسى (ع) مع فتاه "إذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا" وهنا يبدو أن القصة اختصرت حواراً أطول من هذا، ولأن الحوار يبطئ من العملية السردية هنا إلى حد إيقافها، الأمر الذي لم يشأ السارد أن يتم بلا غاية ترجى، لذلك اختصر الحوار على قول موسى (ع)، إلى أن يعيد موسى الحوار بعد الوصول إلى مجمع البحرين ونسيان الحوت "فلما جاوزا قال لفتاه آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا"، وفي هذا القول توجه مباشر نحو الآخر الذي هو فتى موسى. إن الملفوظ الحواري قد يُدرَك من اللغة ومعناها، لكنّ ذلك يعد قصوراً إذا لم تؤخذ المعاني الخلفية الأخرى للغة الآخر المخاطب. إن في كلام المتكلم قصديّةً، وهذه القصدية مكنونة في ذاته أولاً، ويطلب من المخاطب جواباً عليها ثانياً، وثقافة الآخر المخاطب تؤدي دوراً كبيراً في هذا الحوار، إذ إنه يفرض تأويلاً، وتحليلاً، وجواباً معيناً راهناً. وحوار موسى مع فتاه كان حواراً بسيطاً لم يرقَ إلى المستوى الفلسفي في هذه القصة، لأن هذا الحوار كان تهيئة ومقدمة للحوارية التالية بين موسى (ع) والرجل الصالح، كما بيّن أن هناك شيئاً ينتظره المتحاوران، وإن كان يخص النبيّ موسى، والدليل قوله تعالى "فوجدا". ولما جاء الوصف للرجل الصالح بأنه أوتي علماً تقدّم موسى لحواره ولم يتقدّم الفتى، التزاماً بطبيعة المرتبة العلمية التي كانت لموسى ولم تكن لفتاه. إذاً فقد قدّم لنا الحوار كلاً من الشخصيتين، كما هيّأ للحوار اللاحق الذي تغيب فيه شخصية الفتى.

ولعلّ الحوار التالي دلّ أيضاً على المرتبة العلمية المقدّمة للرجل الصالح على موسى بقول موسى "هل أتّبعك"، وهي هنا تبعية علم "على أن تعلمني مما عُلّمت رشدا". ويتميّز حوار النبي موسى (ع) مع الرجل الصالح بتدخل الغيبي، وهو الشيء المشترك بين المتحاورَين، والذي يتفوّق الرجل الصالح على موسى بتأويله. وهذا بدا واضحاً في قول موسى، إذ كيف له أن يعرف أن هذا الرجل قد أوتي علماً أكثر منه لولا الرسالة الإلهية الغيبية التي أوحت له بذلك. أما كلام الرجل الصالح فهو يدلّ بداية على علم التأويل الذي استفرد به هبةً من الله تعالى، والذي بدأه باستشراف المستقبل بثقة التوكيد "إنك لن تستطيع معي صبرا". الآن وفي الحوار لا يحق للمتكلم – كما ولا يجب – أن يتصرّف على هواه، إن فهمه لطبيعة الموضوع يجب أن يُدمج بفكرٍ وفهمٍ آخر، إنه منظور الشخص المقابل في الحوار، ويقيم بهذا مجموعة عبارات معقدة يتعاقد فيها المتكلم مع محاوره، بل يشركه أيضاً في عملية الفهم والإدراك لطبيعة الكلام المنقول، وعندما يتوجه نحو محاوِره فإنه يستبيح عالم فكره، ويطالبه بالرد على التساؤلات، وعندئذٍ فقط تتفاعل في الخطاب الحواري وجهات النظر والسياقات المختلفة وربما حتى الأساليب المتبعة بين المتحاورين.

أما عن حوارات الرحلة فهي في كل قصة ينطلق فيها المتحاوران توقف السرد وقفة قصيرة تشير إلى توكيد الحوار الأول الذي بدأه الرجل الصالح بأن موسى لن يستطيع صبراً معه. إلى أن تصل الرحلة إلى نهايتها بحديث جهريّ يتبناه الرجل الصالح فيوقف معه السرد وينهي به القصة.

2. بناء الشخصيات:

لعلّ الشخصية تشكّل المكوّن الأبرز من مكونات السرد في القصة، حتى قالت عنها فرجينيا وولف: "دعونا نتذكر قلة ما نعرفه عن الشخصية"[4]، كما يستحيل أن تكون هناك قصة من دون شخصية. وشخصيات قصة البحث الأساسية ثلاثٌ: النبي موسى (ع)، والرجل الصالح، وفتى موسى. وتبدو شخصية الفتى شخصية بسيطة لا جدال فيها بالنظر إلى نسبتها للأحداث، فهي قليلة الظهور، ولا تشكّل منعطفاً في الحدث، وسلوكها بدا واضحاً جلياً تجاه الأحداث، والشخصية عند السرديين تقسم إلى قسمين: "مسطحة (Flat) (بسيطة، ذات بعدين، قليلة السمات، يمكن التنبؤ بسلوكها ببساطة)، أو مستديرة (Round) (معقدة، ذات أبعاد مختلفة، قادرة على إثارة الدهشة بسلوكها)"[5]. وعليه فإن شخصية موسى تبدو الشخصية المستديرة التي تبدأ منها الأحداث وتعود إليها، وقد لا تظهر معقدة مثل شخصية الرجل الصالح الذي يفاجئ القارئ بسلوكه في كل أحدوثة أو فعل سرديّ يقوم به، إلا أنه بتحليل دقيق يستطيع الباحث اكتشاف أن الرجل الصالح وتلك الأفعال السردية التي قام بها كلّها كانت تهدف إلى العودة إلى الشخصية المستديرة الأساسية، وهي شخصية النبي موسى (ع)، وإفهامها أن العلم الذي تعلمه تلك الشخصية يظلّ قاصراً أمام علم الله، وعلم من يمنحه الله علمه. وهناك . حسب تودوروف . نمطان من الشخصيات: "فهناك الشخصيات الخاضعة للحبكة، والتي يسميها هنري جيمس بالخيط الرابط (Ficelle)، وهناك الشخصيات التي تخضع لها الحبكة وهي خاصة بالسرد السيكولوجي حيث تكون غاية الحلقات الأساسية في السرد هي إبراز خصائص الشخصية"[6].

وشخصية موسى لم تكن شخصية ثابتة في القصة، على عكس الشخصيتين الأخريين؛ فشخصية الفتى أدت دورها في مرافقة النبي موسى (ع) في بداية الأحداث ثم توقفت وغابت عن مجمل الأحداث اللاحقة، وكانت شخصية ثانوية مساعدة للشخصية الرئيسة، فهي من البداية ثابتة ولم تنمُ مع تطور الأحداث. وكذلك الشخصية الثانوية المساعدة الثانية وهي شخصية الرجل الصالح، فكانت شخصية داعمة جداً لشخصية موسى، ولكنها أيضاً لم تتطور بالنسبة إلى أحداث القصة. على حين أن الشخصية المتطورة الوحيدة، وهي الشخصية الرئيسة، هي شخصية النبي موسى (ع)، إنها الشخصية النامية مع الحدث، والمتطورة بتطوره.

---

[4] مجموعة من الأدباء: "نظرية الرواية في الأدب الإنكليزي الحديث". ترجمة: إنجيل بطرس سمعان. الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. القاهرة، ط1- 1979، ص174.

[5] . برنس، جيرالد: "قاموس السرديات". ترجمة: السيد إمام. ميريت للنشر والطباعة، القاهرة، ط1- 2003، ص30.

[6] . بحراوي، حسن: بنية النص الروائي: الفضاء، الزمن، الشخصية". المركز الثقافي العربي ـ بيروت / الدار البيضاء، ط1- 1990، ص216.

ولا يخفى على قارئ آيات القصة أن الآيات لم تأت على ذكر الأسماء الحقيقية للقصة، ماعدا النبي موسى (ع)، بينما نلقى الكتب السماوية الأخرى والكتب التاريخية تتحدث عن أسماء شخصيات القصة، ففي أحداث التاريخ: الفتى هو يوشع بن نون، والرجل الصالح هو الإمام الخضر، فلماذا لم تأت الآيات على ذكر الأسماء الحقيقية للشخصيات؟ أولاً: لم يشأ الله تعالى أن يلفت الانتباه إلى الأسماء بل شاء أن ينبه إلى صفاتها، فيوشع بن نون هو فتى موسى في الآيات، وهذه الصفة ليست على الأهمية الكبيرة في الأحداث في هذه القصة، أما الإمام الخضر فكان . كما ورد إلى الآيات . "عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنّا علما". إذاً، موسى الشخصية الوحيدة التي ذُكر اسمها صراحة، وهي الشخصية المحورية التي دارت حولها أحداث القصة، وتطورت الأحداث لأجلها.

3. بناء الزمن:

لا شكّ أن لكل قصة ثلاثة أزمنة: زمن واقع القصة (الكرونولوجي)، وزمن كتابة القصة (زمن السرد)، وزمن قراءة القصة. لكنّ ما يميّز القصة القرآنية تلك المسافات الزمنية الطويلة بين الأزمنة الثلاثة، فإذا كان القرآن الكريم قد نزل منذ ما يقارب ألفاً وأربعمئة عامٍ، والقصة التي تناولها هنا سبقت نزوله بكثير. ولكن ما يهم هو كيف تعامل السرد الحديث مع القصة القرآنية؟ وهل استطاعت القصة القرآنية أن تتمثّل الزمن السردي الحديث؟

بمتابعة النموذج الذي اختاره البحث يلحظ المرء . كما ذُكر سابقاً . أن القصة بدأت بكلمة "إذ" وهي تفتتح استذكار الزمن الماضي التي خرجت منه هذه القصة. إذاً الحكاية كلها استرجاع لأحداث زمنٍ مضى. ولم يكن الاسترجاع قليلاً هنا، إذ لعب دوراً مهماً في عملية بناء السرد، فهذا فتى موسى يسترجع الأحداث عند الصخرة: "قال أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت..."، ولهذا الاسترجاع دور مهم في أحداث القصة، فالنسيان والاستذكار فيما بعده كانا الهدف والمقصد: "ذلك ما كنا نبغي". والاسترجاع والاستباق حركتان زمنيتان في مكونات السرد: "ندلّ بمصطلح (استباق) على كل حركة سردية تقوم على أن يُروى حدث لاحق أو يُذكر مقدماً، وندلّ بمصطلح (استرجاع) على كل ذكر لاحق لحدث سابق للنقطة التي نحن فيها من القصة"[7]. وتأتي سلسلة الاسترجاعات في نهاية القصة لتكون خاتمة الرحلة، والأساس الذي بنيت عليه بالكامل، فقد استرجع الرجل الصالح الحكايات الثلاث التي استوقفت النبي موسى (ع) لتأويل الأفعال التي قام بها: "فأما السفينة فكانت..."، "وأما الغلام فكان..."، "وأما الجدار فكان...". واسترجاع قصة السفينة والغلام والجدار كان بقصد التأويل وبيان المقصود من الأفعال. وهي الفجوة التي تركها السرد سابقاً، فالاسترجاع يأتي ليؤدي وظائف متعددة في النص القصصي مثل: "ملء الفجوات التي تركها السرد بإعطاء معلومات عن سوابق شخصية جديدة أو حاضرها، والإشارة إلى أحداث سبق للسرد أن تركها، أو تغيير دلالة بعض الأحداث بإعطائها دلالة جديدة، أو لسحب تأويلها واستبداله بتأويل جديد"[8].

أما الاستباق فيكاد الاستباق الوحيد الواضح في القصة يكون دليلاً على معرفة الرجل الصالح وعلمه، إذ يقول: "إنك لن تستطيع مع صبرا"، وكأنه يستشرف بعلمه الحدث الذي سيصل إليه في نهاية الرحلة، ويحدث هذا فعلاً في النهاية. فموسى لم يستطع إيقاف النفس العجولة، فهكذا خُلق الإنسان عجولاً، ولم يستطع الصبر كما تنبأ له الرجل الصالح.

---

[7] . جينيت، جيرار: "خطاب الحكاية. بحث في المنهج". ترجمة: محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، عمر حلي. المجلس الأعلى للثقافة. المغرب، ط1- 1997. ص51.

[8] . بحراوي، حسن: "بنية الشكل الروائي: الفضاء، الزمن، الشخصية". ص121- 122.

وتلجأ الآيات أيضاً إلى تسريع السرد عن طريق الحذف لبعض الأحداث في القصة. والمتأمل في القصة يلحظ أن هناك قصة سابقة على القصة المذكورة يمكن أن يفكر فيها قارئ القصة، فإصرار موسى ألا يبرح مجمع البحرين جاء نتيجة لسبب سابق حذفه السرد، ويؤكد ذلك قول موسى (ع): "ذلك ما كنا نبغي" أي أن هناك هدفاً موضوعاً سابقاً سعيا إليه، ولم يذكر السرد ذلك الحدث بل استنجد بتقنية الحذف ليتجاوز حدثاً، مكتفياً بالإشارة إليه بصورة ظاهرة أو ضمنية، وذلك يكون حينما ينتقل السارد أو الراوي من زمن إلى آخر من دون ذكر أي شيء عن كيفية تحقيق الحدث[9]. وقد لجأ السرد إلى تجاوز أزمنة عدة في الآيات بالخلاصة والحذف، فحين يأتي بالأفعال مقترنةً بأداة الشرط "لما" يكون قد تجاوز زمناً من الأحداث تفقد أهميتها أمام الأحداث الرئيسة التي ذُكرت في السرد: "فلما بلغا مجمع بينهما..."، "فلما جاوزا". ومثلها أيضاً حين ينطلق السرد بالشخصيتين (موسى والرجل الصالح) في الرحلة يقول: "فانطلقا حتى إذا..." فما بين الانطلاقة وركوب السفينة أو إيجاد الغلام أو المجيء إلى القرية هناك زمن لم يأت السرد على ذكره بل تجاوزه أيضاً، وذلك يمكن أن يكون لضآلة أهميته بالنسبة إلى لأحداث المسرودة. لهذا السبب يكون السارد قد نجح في استثمار تقنيتي الحذف والخلاصة في تسريع زمن الأحداث في القصة. كما استثمر تقنية الحوار الممسرح (المشهد) في إبطاء السرد، كما في حديث موسى والرجل الصالح قبل الرحلة، أو في أثنائها، أو في نهايتها.

4. بناء المكان:

لم يعد المكان في علم السرد الحديث مجرد حيز جغرافي تتواجد فيه شخصيات القصة، بل تعدى ذلك ليكون الفضاء الذي يؤسس لنفسه نظاماً خاصاً داخل النسيج النصي، وتخترقه المكونات الأخرى ولاسيما الشخصيات، فيؤثر في تصرفاتها وأفعالها، كما يؤثر في تفكيرها. وتبدأ هذه العلاقة في القصة منذ إصرار موسى على عدم مبارحة المكان حتى بلوغ مجمع البحرين، إنه التصاق بالفضاء السردي الذي يتشكل في داخل النص، فمجمع البحرين، وبالتحديد الصخرة فيه، كانت احتواءً لتصرفات تثير في فكر القارئ ملاحظات عدة، فهي المنطلق الأول والمستقر الأول للفكرة التي استبدت بإرادة موسى وغايته في إيجاد الرجل الصالح الذي كان موعوداً بلقائه في ذلك المكان، ومنه انطلقت الرحلة. فقد يظن المتلقي أن المكان هو مجرد صخرة في مجمع البحرين، ومكان واقعي أرضي، "بيد أن استعمال الفضاء يتعدّى بكثير الإشارة إلى مكان من الأمكنة، إن الفضاء يخلق نظاماً داخل النص، مهما بدا في الغالب كأنه انعكاس صادق لخارج عن النص يدّعي تصويره، بمعنى أن دراسة الفضاء الروائي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالآثار التشخيصية"[10]. وهذا يبدو واضحاً من خلال الاتحاد بين مكونات نسيج السرد، فالانطلاق مؤَسَّس من مكان ما، والمكان السردي الأول في الرحلة "السفينة" احتوى الشخصيات الثانوية (المساكين الذين يعملون في البحر)، واحتوى الشخصيتين الرئيستين (موسى والرجل الصالح)، واحتوى الحدث الرئيس في النقطة الأولى من الرحلة (خرق السفينة)، هذا الاحتواء لعالم سردي مفتوح على مخيلة القارئ، ومحكيٍّ بلغته، إذاً تحوّل المكان إلى فضاء كامل، والسرد هو الذي أنتج فضاءه الخاص المشكِّل لتلك العلاقات في داخله، ومثلما أسس لهذا الفضاء أسس أيضاً لإنتاج التأويل للحدث، ثم الاشتراك في تكوين العبرة. واختراق الشخصيات للمكان بأفعالها ورؤاها تحوّل المكان، في السرد، إلى فضاء سردي. وكذا كان فضاء القصة الأخيرة في القرية حين اخترقته رؤى الشخصيات مانحة إياه أبعاداً سردية جديدة، وفاتحة، بآن واحد، أبواب التوسيع من ثقافة القارئ ومخيلته.

---

[9] . بحراوي، حسن: "بنية النص الروائي: الفضاء، الزمن، الشخصية"، ص159.

[10] . مجموعة من الباحثين: "الفضاء الروائي". ترجمة: عبد الرحمن حُزَل. إفريقيا الشرق، الدار البيضاء / بيروت، ط2- 2002، ص20.

لقد منحت الشعرية المكان أبعاداً جعلت منه فضاءً نصياً يتجسد من خلال الكلمات التي تنتجها المخيلة الحكائية، هذه الأخيرة أنتجت العناصر السردية الأخرى التي شكّلت في علاقتها بهذا الفضاء الجديد ما أسس لعالم القص، ولذلك صار المكان موضوعاً مستقلاً في السرد والفكر، ومبررات وجوده موجودة في داخله، وهي أكبر بكثير مما يمكن أن يكون مكاناً واقعياً محسوساً.

خاتمة:

تحمل القصة القرآنية في حكايتها العبرة والعظة، كما تحمل في أسلوبها الإعجاز، لكنّ معظم دارسيها تجشموا عبء دراستها من منظور التفسير التشريعي، ودرس جلُّ الأدباء أسلوبها من منظور بلاغي، بينما تخطت بسردها أبعاد الزمن، لتؤكد أنها نسيج ذاتها في تكاملها سردياً، من خلال العناصر التي أنتجها ذلك السرد فيها، فكانت المتخيَّل المبدع. ولعل أبرز ما يمكن استنتاجه من هذا البحث:

1. درس البحث النصَّ بوصفه بنية داخلية كلية مغلقة لا تحيل إلا على ذاتها، ومن إنتاج سردها، مستثمراً تقنيات السرد الحديث، واشتغل على العناصر المكونة لهذه البنية، والعلاقات القائمة فيما بينها، ووجد أن البنية قد نهضت بهذه العلاقات فأنتجت نسقها، ولا يمكن تبين هذا النسق إلا من خلال تلك العلاقات.
2. ركز البحث على وصف العلاقات بين عناصر القصة في زمن واحد هو زمن استقرار بنيتها، واستبعد تطورها بين النصوص السابقة واللاحقة، فكشف عن تنظيم سردي لافت يتواشج فيه كل من السرد والوصف والحوار مشكلين لغته الدالة، ويتعالق فيه المكان والزمان والشخصيات لتكوين فضاء النص.
3. برغم البعد الزمني الذي يفصل زمن أحداث القصة عن زمن كتابتها وزمن قراءتها، لكنّ النص استطاع أن يستثمر طاقات السرد الحديث، ويوظّف تقنياته لإنتاج بنيته ونسقه.
4. لعله من المفيد في نهاية هذا البحث أن يذكّر المرء بأن الاعتقاد بالفرق بين تخييل القصة الحديثة وواقعية القصة القرآنية هو . برأي الباحث . اعتقاد وهمي، مصدره جعل الأحداث التي استثمرتها القصة ميزان التفاضل بين القصتين، لكن . وبتفصيل بسيطٍ بين المخيِّلة والتخييل . يمكن للمرء تدارس هذا الموضوع. فإذا كانت الحكاية جملة من الدلالات والرموز فإنّ الكاتب لم يستقبلها من الفراغ، بل من تراكمات مسبقة، وهذه الدلالات والرموز تسكن في فضاء مخيّلة الكاتب، ومن تلك الرموز والدلالات يتشكّل النص، وذلك بانتقاله إلى مادة مقولبة ومؤسلبة ضمن كيان خاص. فالمخيلة موضوع غير منجز، ويتحول إلى وجود عندما يخطه قلم المبدع، ولكن التأويل والقراءة يجعلان هذا الإبداع موضوعاً مفتوحاً، أي مخيلة، فيفقد، من ثم، انغلاقه ليتقونن من جديد في فكر مبدع آخر هو الناقد. وعلى هذا تكون الأحداث الواقعية التي استثمرتها القصة القرآنية هي تلك المخيلة التي يمكن أن يستثمرها أي كاتب في كتابة رواية أو قصة أو مسرحية أو أي متخيَّل آخر، لكنّ يد المبدع الخالق التي حولت تلك المخيلة إلى متخيّل معجز جعلته أحسن القصص.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

1. *بحراوي*، حسن: "بنية النص الروائي: الفضاء، الزمن، الشخصية". المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط1- 1990.
2. *برنس*، جيرالد: *"قاموس السرديات"*. ترجمة: السيد إمام، ميريت للنشر والطباعة، القاهرة، ط1- 2003.
3. جينيت، جيرار: *"خطاب الحكاية*: بحث في المنهج". ترجمة: محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، عمر الحلي. المجلس الأعلى للثقافة، المغرب، ط1- 1997.
4. لحمداني، حميد: *"بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي"*. المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، 1993
5. مجموعة من الأدباء: *"نظرية الرواية في الأدب الإنكليزي الحديث"*. ترجمة: إنجيل بطرس سمعان، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ط1- 1979.
6. مجموعة من الباحثين: *"الفضاء الروائي"*. ترجمة: عبد الرحمن حُزَل، إفريقيا الشرق، بيروت/ الدار البيضاء، ط2- 2002.
7. محفوظ، عبد اللطيف: *"وظيفة الوصف في الرواية"*. الدار البيضاء للعلوم ناشرون/ منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1- 2009.